ن والقلم وما يسطرون

بحث في أسرار الحروف العربية المعجمية

الدكتور مصطفى جواد

لم تنفك اللغة العربية تنفرج عن اسـرار ودقائق في حروفها وكلمها وتأليف جملها ، وقواعدها وموسيقاها اللفظية والتركيبية ، وفي ذلك دلالة على انها من اللغات التي بلغت الـكمال بعد تطورها الـكمالي من حال إلى حال طوال عصور ودهور لم يتوصل البحث بعد إلى تقديرها ، وتحريرها ، ومن اسرارها ودقائقها ما تضمنته حروفها من دلالات ظهرت في دخول طائفة منها في كثير من الـكلمات ، فكان وجودها فيها أمارة على معنى من المعاني المهمة في وظيفة اللغة العامة .

أنا من الذين يقولون بثنائية اللغة وسبقها للثلاثية في الوجود مستدلاً بكثرة ما وجد فيها من كلم ثنائي من حروف وأسماء وأفعال وما يسمونه أسماء أفعال ، اما الحروف الثنائية فلا حاجة الى ذكر أمثلة لها ، واما الاسماء فكأسمي الشرط والاسـتفهام من وما وأسماء الاشارة والمعاني الأخرى ، والاسماء الثلاثية المضعفة التي يثبت التحقيق العلمي أنها ثنائية الاصول ، والافعال الثلاثية المضعفة ، التي شأنها كشأن الاسماء الثلاثية المضعفة لما بينها من الاتصال ولا سيما الاتصال في المصادر ، واما اسماء الافعال ـ كما سماها جماعة من النحويين ـ فلا تحتاج الى ذكر أمثلة فهي كالحروف الثنائية المشـار اليها آنفاً تغلب عليها الثنائية ، نحو صه وبخ ووي .

ووجود الثنائيــــة يدل على أن طبيعة اللغة العربية جعلت في المقطعين الأولين اللذين يمثلان أصل الكلمة ، المعنى العام [1] ثم اخـــذت تضيف الى المقطعين ثالثاً وهو الحرف الثالث الاخير لتنويع المعنى العام وتخصيصه بعد عمومه . ويجب أن لا يفهم من هذا القول وجوب أن يكون لكل كلمة ثلاثية أصل ثنائي فان اللغة في تطورهـا بلغت طوراً كانت تضع فيه ألفاظاً ثلاثية كاملة لكمال وجود الاعراب فيها الذي هو نظام المعاني وسلسلتها ، كما أنه لا يستبعد وجود ألفاظ ثلاثية ضمرت لكثرة الاستعمال وطلب تخفيفه فصارت ثنائية . وفي اللغة أيضاً كلمات ثلاثية ماتت أصولها الثنائية في الاستعمال بسبب من أسباب التطور اللغوي ، مثل الفعل « نهنه » بمعنى كف وزجر وإن ادعي ان اصله « نهَّهَ » على ما جاء في القاموس ، لأن هذه الدعوى لا تغنيه عن أن يكون اصله ثلاثياً أي « نهَّ » على وزن « مدّ » أو حرفاً زجرياً أي « نَهْ » على وزن « بَلْ » ولا وجود لهما في اللغة . ومن المتعالم المتعارف أنّ في كل لغة قديمة عظيمة كاللغة العربية كلماً مات استعمالها أو بعضه أو ندر حتى اختلف علماء اللغة أنفسهم في تفسيرها وشرحها ، لان منها ما كان مقتبساً من لغات أخرى ، وهؤلاء العلماء الحيارى في الشرح لا يعرفونه ، قال جلال الدين السيوطيّ : « في أمالي ثعلب ، قال الأخفش : لا أدري والله ما قول العرب (وضع يديه بين مقموورتين) يعني [2] بين شــرّين ، وفي الغريب المصنف قال الأصمعي : ما أدري ما الحور في العين . قال : ولا أعرف للصوت الذي يجيء من بطن الدابة اسماً ، والمصحاة : إناء ولا أدري من أي شيء هو ، ولا أدري لم سُمّي سام أبرص . وسئل الاصمعي عن عنجول ، فقال : دابـــة لم أقف على حقيقته [3] ، قال أبو حاتم : قلت للأصمعي : مِمّ

---

(١) هذا في الصحيح ، أما المعتل الأجوف في الافعال وأبوه المضعف والمعتل العين في الاسماء فيمثل المعنى العام مقطع واحد .

(٢) كذا ورد والصواب « تعني أو يعنون » أي العرب .

(٣) التاء في الدابة للجنس لا للتأنيث فتجوز إعادة الضمير اليها مذكراً تقول : هـــذه دابة فارهة وهذا دابة فاره .

اشتقاق هصّان وهصيص ؟ قال : لا أدري ، قال أبو حاتم : أظنه معرباً وهو الصلب الشديد لأن الهص : الظهر بالنبطية ... قال الاصمعي : لا ادري مم اشتقاق جيهان وجهينة وآرسة : اسماء رجال من العرب ... وقال ابن دريد : أملى علينا أبو حاتم قال (قال أبو زيد ما بني عليه الكلام ثلاثة احرف فما زاد ردّوه الى ثلاثة وما نقص رفعوه إلى ثلاثة مثل أب وأخ ودم وفم ويد [1] » . وهذا ينفي نظرية ابن فارس في دعواه النحت في العربية .

وكان الرأي الشائع الذائع أن « حروف المباني » لها معان تأليفية تركيبية نسبية وليست لها معان فرُوْدية فالفاء من حروف المباني ، على سبيل التمثيل ، لا فاء العطف ولا فاء التعليل ولا غيرها ، ليس لها معنى عند دخولها في تركيب الكلمة مثل « خف » و « خفيف » على الرأي الذي كان شائعاً ثم فطن ناس من علماء الصرف واللغة إلى أن لا يمتنع ان يكون لها معنى نسبي ومعنى فرودي معاً ، إذا وقعت في موضع معين من الكلمة كالفاء نفسها في آخر الكلمة ، فهي تفيد فائدة في تركيب الكلمة أي بنائها وفائدة أخرى هي الدلالة على « الخفة » والرقة وضد الفخامة والثخانة والصلابة ، كما أرى مثل الفعل « خف » نفسه وازف الرجل اي عجلَ والعجلة خفة وازف الجرح اي اندمل ، وألف بألف اي انبسطت نفسه الى الاجتماع ، وجحف اي قشّر وجرف ، والفعل « جرف » بعينه فالجرف للتخفيف ، وجف الشيء والجفاف خفة وجلف اي قشر ، وحذف من الشعر أي اخذ منه ليخف ، والحرف وهو الطرف ، وحَسَف التمر اي نقّاه والتنقية تخفيف من الاوساخ ، والحشف وهو التمر الضعيف الخفيف الذي لا نوى له او اليابس ، واليابس اخف من الرطب ، والخذروف وهو الشيء الذي يديره الصبيّ بخيط في يديه فيسمع له دويّ وتسميه العامة « المصرع » اي المُسرَع من أسرعه يُسرعه إسراعاً ، وخَطِف يدل على خفة في الأخذ ، وخطرف : اسرع في مشيته ، والخلف ، وفيه تخفيف فهو بضد الأمام الذي هو عائق وكل عائق ثقيل ، والخوف وهو يدل على اضطراب ، ورأف ، والرّخف

(١) المزهر في علوم اللغة وأنواعها « ج ٢ ص ٢٠٠ ، ٢٠١ طبعة مطبعة السعادة سنة ١٣٢٥ » .

وهو الزبد الرقيق او المسترخي ، والاخف مثله . ورعف اي خرج الدم من انفه ، وهو تخفيف ، ورفّ الطائر : بسط جناحيه كرفرف ، والرانفة من الكبد ما رق منها ، ورهف السيف وارهفه : رققه ورهف رهافة اي دقّ ونحف ، والفعل « نحف » نفسه وضعف وعجف ، وزحف وزرف اي قفز والزعف : السحاب الذي اراق ماءه نخف ، وزف الظليم او غيره : اسرع ، وتزففه اي استلبه بسرعة ، وزافت الحمامة : نشرت جناحيها ، وزهف اي خف ، وزاف يزيف زيفاناً اي تبختر في مشيته ، وسحف الشعر : كشطه عن الجلد حتى لايبقى منه شيء ، والسخف : رقة العقل وغيره كالنسيج ، والسرعوف : كل ناعم خفيف اللحم والشاسف : اليابس من الضمور والهزال ، والشف : الثوب الرقيق ، وشف الشيء : اي رق وخف ، وشاف الشيء يشوفه : جلاه وازال عنه الصدأ او الوسخ ، والطرخف : ما رق من الزبد كالرخف المقدم ذكره آنفاً ، وطف المكيال وطففه اي اقل ما فيه نخف ، والظرف خفة النفس والطبع ، والعطف يمثل رقة النفس ، وقف العشب : يبس والثوب : جف ، والكشف فيه ضرب من التخفيف ، وكفه اي منعه من التثقيل على غيره ، ولطف الشيء لطفاً ولطافة اي صغر ودق . ولقفه : تناوله بسرعة ، وليف النخل ما رق من مكوناته ، ونتف الشعر اي نزعه ، وندف القطن : قلل غلظه ، ونشف الثوب العرق : امتصه ، والنفنف : الهواء ، وعشرات الفاظ اخرى ، ولكن ذلك لايبلغ ان يكون قاعدة مطردة ، فمن الافعال ما يمثل الاصوات الطبيعية ومنها ما يمثل ضد الخفة مثل « كثف » ولهف اي حزن ولحف اي غطى وعشرات غيرها .

اسرار النون في اللغة العربية

وقد تأملت حروف المباني في اللغة العربية تأملاً كثيراً او طويلا فوجدت اعجبها واكثرها اسراراً ودقائق « النون » قال الله ـ عز وجل ـ في سورة القلم : « ن والقلم وما يسطرون » فكأن في افتتاحه السورة بها تفضيلا لها وتنبيهاً على ما فيها من عجائب تظهر

في مباني الكلم ، وفي وضع اللغة نفسها ، وذلك مما لم يقف عليه المفسرون - رح - قال الزمخشري في الكشاف : « قريء نْ والقلم . بالبيان والادغام ، وبسكون النون وفتحها وكسرها كما في ص ر . والمراد هذا الحرف من حروف المعجم . واما قولهم هو الدواة فما ادري اهو وضع لغوي ام شرعي ؟ ولا يخلو اذا كان اسماً للدواة من ان يكون جنساً او علماً ، فان كان جنساً فأين الاعراب والتنوين ؟ وان كان علماً فأين الاعراب ؟ وايهما كان فلا بد له من موقع في تأليف الكلام . فان قلت : هو مقسم به وجب ان كان جنساً ان تجره وتنونه ويكون القسم بدواة منكرة مجهولة ، كأنه قيل (ودواة والقلم) وان كان علماً ان تصرفه وتجره او لا تصرفه وتفتحه للعلمية والتأنيث ، وكذلك التفسير بالحوت [1] ... » . وهكذا حار الزمخشري .

والذي اراه في النون هو انها اكثر حروف المعجم إفادة في تكوين اللغة ، فالذي ذكره علماء النحو من فوائد هو إتيانها « للتنوين » على اختلاف اضربه ، لانها من الحروف المجهورة لا المهموسة ومن الاحرف المذلقة ، وبين الشديدة والرخوة ، والحروف المفتوحة لا المطبقة ، والمنخفضة لا المستعلية . ومعنى المجهورة انها حروف اشبع الاعتماد في موضعها فمنعت النفس ان يجري معها ، فخرجت ظاهرة والجهر هو الاظهار ولذلك سميت مجهورة ، ومعنى المذلقة ان لها فضل اعتماد على ذلق اللسان وهو طرفه ولذلك سميت مذلقة ، ومعنى انها بين الشديدة والرخوة هو انها حروف لامفرطة في الصلابة ولا ظاهرة الضعف بل هي في اعتــدال بينهما ، ومعنى المفتوحة انها حروف لايرتفع اللسان بها الى الحنك الأعلى فينفتح عنها ، ومعنى المنخفضة انها لا تستعلي الى الحنك الاعلى ، ومخرج النون هو من فوق ادنى حافة [2] اللسان فويق الثنايا الى منتهى طرفه [3] . ثم إنها حرف موسيقي ذو

---

(١) الكشاف « ج ٢ ص ٤٧٩ » .

(٢) بتخفيف الفاء وتشديدها خطأ .

(٣) أسرار العربية « ص ١٦٦ ، ١٦٧ طبعة ليدن سنة ١٨٨٦ » .

رنين وغنّة . ومن فوائد النون ايضاً في وضع اللغة العربية ورودها بدلا من احد الحرفين في الكلمة المضعفة ، في المرتبة الثانية ، والمرتبة الاولى لأحرف العلة لرقتها ولان الابدال الصق بالرقة منه بالخفة ، وهو الابدال الذي لم يعرفه علماء الصرف ، فاستبهمت عليهم اصول كلم كثيرة ، مثل « الخنزير » فأصله « الخزّير » بتشديد الزاي ، لأنه يخزر ومثل « العنقود » فأصله « العقّود » لأنه يظهر كالمعقود ، ومثل « الجندل » فأصله « الجدّل » بتشديد الدال ، ومثل فنطيسة الخنزير ، فأصلها « فطّيسة » بتشديد الطاء ، ومثل « المنديل » فأصله « المدّيل » بتشديد الدال ، يدل على ذلك قولهم « تمدّل تمدُّلاً » أي شدّ وسطه بالمنديل أو اعتمّ به ، واكثر الكلمات الرباعية والخماسية التى ثانيها نون أو ما قبل آخرها ، نونها مبدلة من الضعف ، فالفعل « احرنجم » أصله « احرجّم احرجّاماً » فاستثقل التضعيف فصار « احرنجم » بابدال النون من أحد الجيمين ، وأصل الاحرنجام من الاحجام . لأن الراء تبدل من احد الضعفين [1] ، وآخر ما نذكره من الابدال الفصيح الفعل « انفعل انفعالاً » فأصله « افّعل افّعالاً » بتشديد الفاء هكذا كان في الازمنة الواغلة في القدم التى لم تسجل فيها اللغة العربية، ومنها ما بقي فيه الوجهان كالاجّاص والانجاص والدرّوح والذرنوح والقبّرة والقنبرة والفطيسة والفنطيسة وقد ذكرناها آنفاً . وهذا الابدل فاش في اللغة العامية وهي لا تخرج عن قواعد التطور في الفصيحة ، فالتطور لا يعرف فصيحاً وغير فصيح ، كقولهم « المنطرد » أي المطّرد ، وجندله بمعنى جدّله ، ودنبوس بمعنى دبّوس وزنباره أي زمارة و « زنبر ابنج يعجوز » أي زمّر ، وصنقر أي صقّر بمعنى وقف عالياً كالصقر ، وعنجور لنوع من البطيخ أي عجّور بتشديد الجيم ، وإنجانة الخبز والعجين للاجّانة وغير ذلك .

ومن فوائدها توكيد الفعل المضارع وفعل الأمر واسم الفاعل المستعمل في موضع الفعل كقول الراجزة « أقائلنّ أحضري الشهودا ؟ » . ومنها كونها علامة إعراب في الافعال

---

(١) ومثله « اقعنسس » من قعس .

الخمسة وهي « تفعلين وتفعلان وتفعلون ويفعلان وتفعلان » ومنها اتمامها التثنية مثل « رجلين وامرأتين » وجمع المذكر السالم مثل « مؤمنين » وشبهه مثل مئين وسنين وعزين وبرين » فهذه وامثالها ملحقة به . ويقابلها في العبرانية الميم ، ومنها دلالتها على المتكلمين والمتكلمات في « نقرأ » ، وإفادتها العماد والوقاية في « دعاني » ، والمحافظة على سكون البناء في نحو « مني وعني » وتقويتها الحرف في نحو « انني ولعلني »أو وقايته مثل « ليتني » ومنها دلالتها على الوصف التام تعضدها اللام قبلها نحو « عطشان وريان وجوعان وتيهان وسكران » وعلى قوة المصدر مثل « العرفان والغفران والفقدان والاتيان والرُّمان والشكران » ومنها تقوية النسبة نحو « المنظراني واللحياني والشعراني والبراني والجواني والفاكهاني والسندواني نسبته الى سندية نهر عيسى » ومنها النسبة المطلقة تعضدها اللام قبلها أيضاً في لغة أهل البصرة كقولهم « عبادان » أي العبادية نسبة الى رجل عربي اسمه عباد وهي التي حرفت جهلا وتعصباً أعمى الى « أبادان » ومنها مهيجران اي المهيجرية ويوسفان أي اليوسفية ، ودخول النون هذه يوجب حذف اللام للتعريف أو الألف واللام . ومنها النون الكاسعة لزيادة المعنى مثل « ضيف وضيفن » وهو الذي يأتي مع الضيف ، وهي نون مردفة أيضاً .

سر اللام[1] في تأليف الكلمة

وللنون سر عجيب في تأليف الكلم العربية إذا وقعت في آخر الكلمة فانها تدل على « الجمع والحصر والستر والثبوت » ويستثنى من ذلك الكلمات التي تمثل الأصوات الطبيعية كالأنين والحنين والرنين والغنّة والخنين والطنين والهنين .

وشواهد دلالة النون في آخر الكلمة على « الجمع والحصر والثبوت والستر » هي نحو الاحنة وهي الحقد وهو أمر يستر ويخفى ، والأشنة بالضم : شيء يلتف على شجر البلوط ، والأقنة بالضمّ : بيت من حجر والبيت ساتر ، والأمن ضد الخوف وهو استقرار وثبوت

(١) كذا وردت بخط المؤلف . ولعلها : سر النون .

لا اضطراب ولا انزعاج ، والأون بوزن القول : الدعة والسكينة فهو كالأمن ، وأحد جانبي الخرج وهو يخفي الأشياء ورجل آئن : رافه وادع وأون الحمار تأويناً : أكل وشرب حتى امتلأ بطنه فصار كالأون ، والبَحْوَن بوزن جعفر : الرمل المتراكم ، وهو يدل على جمع ، والبادن والبدين والمبدّن : الجسيم وقد بدُن أي جسم ، والبطن خلاف الظهر وهو مجمع أشياء معلومة وبطن كل شيء ما خفي منه ، وأتّن المرض الصبيّ إتناناً : قصعه فلا يشب فكأنه حصره في حال واحدة ، وتهين فلان يتهن كفرح : نام . والنوم ثبوت وبقاء ، وثخن ثخونة وثخانة معلوم المعنى فهو يدل على اجتماع واكتناز ، والثكنة بوزن النقطة : القبر وحفرة قدر ما تواري الشيء ، والثنّ بوزن التبن : الحشيش إذا كثر وتراكم ، والجبن هو جمود اللبن واجتماعه وثخانته ، والجبن للانسان معلوم ففيه إحجام وثبوت من الخوف ، والجرن بالضم والجرين : البيدر وهو مجمع الغلة او الثمار ، والجفن للسيف والعين ساتر لها ، وتجمش الشيء كتبعثر : تقبض وتجمع ، وجنة الليل : ستره ، والجنى كالوطن : القبر والكفن وكلاهما ساتر ، والجان اصله المستتر ، والجنة تخفي غيرها بأشجارها ، والجنة والمجن معلومان وحجن فلاناً يحجنه حجناً : صده او جذبه بالمحجن ، وفيه منع وحصر ، واحتجن الاموال : اخفاها لنفسه ، وحرنت الدابة حراناً وهي التي امتنعت من السير وثبتت في موضعها ، والحزن وهو قبض للنفس وعدم بسط لها ، والحشن بوزن الزمن : وسخ دسم اللبن الذي يجتمع ويلزق بالسقاء ، وحصُن المكان : منع فهو حصين ، فهو ساتر حافظ لمن فيه ، والحصن هذا شأنه ، وحضَنه : اخذه في حضنه وهو ضرب من الحفظ والستر ، والحضن هذا شأنه ، والحفن بوزن الجفن : أخذُك الشيء براحتيك والأصابع مضمومة ، فالجمع مضمون فيه ، وحقن المائع : حبسه في وعاء أو شبهه وحقن الدم : لم يرُقه واللبن جمعه في الوعاء ، وخبَن الثوب وغيره : عطفه وخاطه ، والعطف فيه جمع وتقصير ، والخدن والخدين : الصاحب ، وهو غالباً للأمور الباطنة ، ويخشى اظهاره للناس ، وخمن ذكر فلان : خمل فكأنه خفي ، والدّجن كلوزن : إلباس الغيم الارض

واقطار السماء وتكاثفه ودفنه دفناً : ستره واخفاه في الارض ، والدّمنة بوزن الفتنة : السرقين المتجمع المتلبد والدن : الراقود الكبير وهو وعاء للايعاء والاخفاء ، والدقن بوزن الزمن مجتمع اللحيين من أسفلها ويجوز كسره ، والذهن عندهم حفظ القلب ، وارثعن المطر ارثعناناً : ثبت وكثر ، والرزن بوزن الدن : المكان المرتفع وفيه موضع مطمئن يمسك الماء ، ففيه حصر ، والراشن : المقيم والرصين : المحكم الثابت ، والمرضون : شبه المنضود من حجارة ، وركن اليه : سكن بعد عدم سكون والمركن إناء معلوم تسميه العامة ببغداد « الكلن » ، والرهن : حبس الشيء والشيء المحبوس ، وران الجهل على قلبه : غطاه ، والزمن كالدن ظلة تتخذ فوق السطوح تقي من حر البحر ونداه ، وسجنه : حبسه والسجن معلوم ، وسكن سكوناً والمسكن وكلاهما يدل على الثبوت والشحن يدل على الجمع والحصر ، وصبّن الهدية : كفها ومنعها ، والصحن : العس العظيم وهو وعاء جامع حافظ ، وصحن الدار : ما حضره البناء من ارضها الخالية ، والصفن والصفن كالدن والزمن : وعاء الخصية وخريطة لطعام الراعي ، وصانه يصونه : حفظه وحاه والصوان : ما تحفظ فيه الاشياء « كالكنتور » والصونة بوزن التمرة : العتيدة اي جنطة المرأة ، والضين : الحافظ الثقة والضغن : الحقد وهو من الامور المستورة ، والطبن بوزن التمر والزمن : الجمع الكثير وطحنت الأفعى : استدارت وهو تجمع ، والمطمئن من الأرض : المنخفض وفيه ستر ومحتمل للاستتار ، والعجن : ضغط وحصر وعدن بالبلد يعدن عدنا وعدونا : أقام مثل قطن ووطن ومشتقاته والوطن ، وكذلك العطن ، والعكنة : ما انطوى وتثنى من لحم البطن سمناً ، وعمن بالمكان : أقام ، وغضنه يغضنه : حبسه وعاقه ، وغمن فلاناً : ألقى عليه ثيابه ليعرق ، والغينة كالقينة : الأشجار الملتفة بلا ماء ، والمقمئن المطمئن : المنقبض ، وكبن الثوب : قريب من خبنه ، وكفن الخبزة في الملة يكفنها : واراها بها ، والكفن ساتر وياله من ساتر كريه ! وكمن كموناً : استخفى ، والكمين : القوم يكمنون في الحرب ، والكينْ : بوزن التين : وقاء كل شيء وستره كالكنة والكنان بكسر الكاف فيها ،

والبيت ، وتلجن : تلزّج ، وفيه تجمع ظاهر ، ولزن القوم لزناً وتلازنوا : تزاحموا ، وفي التزاحم حصر وتجمع ، ومدنَ بالمكان : أقام ومنه المدينة وهي المقرّ ، ومكنت الجرادة : استقرت والمكان : الموضع وهو المستقر ، والواشن : الشيء الثابت الدائم في مكانه ، والوسن : شدة النوم وفيه ثبوت واستقرار ، والوكن كالبيت : عش الطائر وهو مستقر ووضن الشيء وضناً : ضمّه ونضده ، وذلك جمع وحصر . وهدن يهدن هدوناً : سكن واسكن .

هذا ما دعت الحاجة الى إثباته للبرهنة على ما قلناه وليس من بابة الاتفاق أن تدلّ هذه الألفاظ وما لم نذكره من الكلم على المعاني التي ذكرناها ، فسرّ النون المكنون قد ثبت بالشواهد التي لا تدحض والأدلة التي لا ترفض ، ونحن قد اخترنا من معاني الكلمات ما يؤيد دعوانا كما يقتصر المستشهد على مقدار الشهادة ونعترف مع ذلك أن في الالفاظ المختومة بالنون ، ما عدا ألفاظ الاصوات الطبيعية التي قدمنا ذكرها ما يدل على ضد المعنى الذي حدّدناه وبيناه ، مثل « بان وجن وخمن وزبن وزفن وشنّ وعنّ ولعن » ولكنها قليلة جداً . وهذا آخر ما عنّ لنا من الكلام على النون الجامعة الحابسة الحاصرة .

والله ولي التوفيق

مصطفى جواد